

رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس في بداية القرن 19م وأثرها في بنائه الفكري والدعوي
**Mohammed ibn Ali al-Sanusi's journey to Fez at the beginning
 of the 19th century and its impact on his intellectual and
 advocacy development**

أ.د ميلود ميسوم ، أ.د محمد مجاود

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

تاريخ الاستلام: 2025-07-20 تاريخ القبول: 2025-09-12 تاريخ النشر: 2025-12-20

ملخص:

تهدف هذه الورقة إلى إبراز شخصية محمد بن علي السنوسي (1787م-1859م) بوصفه طالب علم ثم عالماً متجولاً ومجدداً دينياً، جمع بين طلب العلم وتأسيس مشروع إصلاح ذي أبعاد دعوية وتنظيمية وسياسية، وقد شكّلت رحلته إلى فاس كطالب للعلم في جامع القرويين فمدرس فيه ومن ثمّ مصلح اجتماعي تجاوز حدود التنقل الجغرافي إلى مستوى التكوين الفكري والروحي العميق، إذ أتاح له احتكاكه في فاس بالعلماء والمشايخ والمراكز الدينية الكبرى اكتساب مشروع متكامل، وظّفه لاحقاً في تأسيس الحركة السنوسية، التي لعبت دوراً مهماً في محاربة الجهل، ومواجهة الاستعمار، وبناء نواة دينية سياسية متماسكة في شمال إفريقيا.

كلمات مفتاحية: رحلة محمد بن علي السنوسي؛ فاس؛ جامع القرويين؛ المشروع الفكري.

Abstract :

This paper aims to highlight the personality of Muhammad ibn Ali al-Sanusi (1787–1859 AD) as a student of knowledge, then a wandering scholar and religious reformer, He combined the pursuit of knowledge with the establishment of a reform project with missionary, organizational, and political dimensions. His journey to Fez, as a student at the Al-Qarawiyyin Mosque, then a teacher there, and then a social reformer, transcended the limits of geographical mobility to the level of profound intellectual and spiritual formation, His interactions with scholars, sheikhs, and major religious centers in Fez enabled him to develop a comprehensive project, which he later used to establish the Senussi movement, which played a significant role in combating ignorance, confronting colonialism, and building a cohesive religious-political nucleus in North Africa.

Keywords: The journey of Mohammed ibn Ali al-Sanusi; Fez; Al-Qarawiyyin Mosque; Intellectual project .

مقدمة:

تكتسي دراسة هذه الرحلة أهمية خاصة من حيث ارتباطها بشخصية علمية ودعوية بارزة، كان لها تأثير كبير في التاريخ الفكري والإصلاح الديني في شمال إفريقيا، فمحمد بن علي السنوسي لم يكن مجرد عالم متنقل، بل كان حاملاً لمشروع فكري وروحي ساهم في تأسيس حركة إصلاحية ذات بعد محلي وإقليمي، وتبرز أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على الرحلة العلمية والدينية باعتبارها وسيلة لبناء الشخصية العلمية والتفاعل مع مراكز العلم المؤثرة في فاس، مما يجعل من دراسة هذه

الرحلة بداية لفهم كيفية تشكل أفكاره التي بلورها في مشروعه الإصلاحية، وكذلك لفهم تفاعل العالم الإسلامي مع التحديات الاستعمارية والفكرية التي شهدتها القرن 19 م. انطلاقاً من أهمية الدراسة وأهدافها، تمحورت الإشكالية الرئيسية التي نسعى إلى معالجتها حول: ما مدى مساهمة الرحلة العلمية والدينية لمحمد بن علي السنوسي إلى فاس خلال القرن 19 م في تشكيل وبلورة مشروعه الفكري، الدعوي والسياسي، وفي تأسيس الحركة السنوسية؟

تهدف هذه الورقة إلى تقديم قراءة علمية موضوعية لمسار محمد بن علي السنوسي، من خلال التركيز على رحلته العلمية لفاس 1805 م، وتتبع مراحل تكوينه العلمي والفكري، وتحليل آثارها في بلورة مشروعه الإصلاحية، كما تحاول إظهار كيفية تحولها إلى أرضية خصبة لبناء مشروع دعوي وتنظيمي، حيث تمكن من خلالها من تأسيس حركة إصلاحية ذات تأثير واسع، كرد فعل على الأوضاع الداخلية السائدة والتحديات الاستعمارية الخارجية.

نظراً للطبيعة التاريخية لموضوع الدراسة، تم اعتماد المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، الذي يتيح تتبع الأحداث وتحليلها وربطها بظروفها الزمنية والفكرية، وقد ساعد هذا المنهج على تتبع محطات الرحلة العلمية للسنوسي، وتحليل تأثيراتها على مشروعه الإصلاحية.

1.. رحلته إلى فاس ومسارها:

تتناول هذه الدراسة دوافع محمد بن علي السنوسي من رحلته إلى فاس، بالإضافة إلى سير الأحداث والتحديات التي واجهته خلالها، لفهم الخلفيات الفكرية والروحية التي اكتسبها، والتي ستكون قاعدة انطلاقه لمشاريعه اللاحقة.

1.1.. دوافع رحلته إلى فاس:

1.1.1.. الدوافع الدينية:

كان محمد بن علي السنوسي منذ صغره شديد التأمل في أحوال الأمة الإسلامية، حيث لاحظ انتشار مظاهر الضعف والانقسام والانحراف عن تعاليم الدين الحنيف، وهو ما أثر في تكوينه الفكري المبكر ودفعه إلى التفكير في مشروع إصلاحية شامل، وقد شبه العالم الإسلامي آنذاك بقطيع من الغنم الذي لا راعي له، رغم كثرة السلاطين والعلماء والمشايخ، إلا أن دورهم لم يكن فعالاً في توحيد الصفوف أو إصلاح الأحوال (شكري، 1948، صفحة 11)، ومنذ تنقلاته الأولى بالجزائر من مستغانم إلى تلمسان مروراً بما زونة، بدأ يشعر بأنه مأمور للقيام بعمله في الإصلاح، وهو ما حدث به بعض أصحابه في أواخر حياته عندما كان في الجغبوب حينما قال لهم كنت منذ الشباب أشعر أنني مأمور في كل عمل أقوم به (الدجاني، 1967، صفحة 36).

وفي نظره أن البلاد الإسلامية تفتقر إلى مرشد حقيقي يكون هدفه جمع كلمة المسلمين بعيدا عن الخلافات القائمة التي فرقهم إلى جماعات مختلفة، وأنها غير معنية بتطبيق أوامر الدين الحنيف، إضافة إلى عدم اهتمام العلماء والشيخوخ اتجاه الشعوب المجاورة التي لا تزال في عبادة الأوثان بالصحراء والسودان، لنصحهم وإرشادهم إلى الدين الصحيح، وقد بلغه من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم أن الإسلام مغلوب على أمره في كل محل، وأن المقاطعات تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت والإسلام بها في حالة تراجع مخيف، والعلماء غير قائمين بواجبهم ولم يقوموا بإرشاد هؤلاء المساكين الوثنيين، وذلك ما جعله يفكر ويجتهد في إصلاح أحوالهم (شكري، 1948، صفحة 13).

2.1.1.. الدوافع السياسية:

لم تكن الظروف السياسية السائدة في الجزائر بمعزل عن دوافعه للارتحال إلى فاس، فقد نشأ في بيئة سياسية مضطربة، تميزت بظلم الولاة العثمانيين وقيام ثورات القبائل ضدهم،¹ وكان من بين الأحداث المؤثرة فيه اغتيال أستاذه العلامة ابن القندوز الذي كان ناقما على حكم الاتراك، من طرف الوالي التركي حسن بك، مما زرع في نفسه نغمة على الحكم العثماني (الدجاني، 1967، صفحة 42). وعلى الرغم من ذلك هناك ظروف أخرى عجلت بهذا الارتحال، كوقوع الفتنة وعدم الاستقرار السياسي بمنطقة تلمسان ووهران ومستغانم كما يقول صديقي الدجاني نقلا عن الشيخ الناصري في كتابه الاستقصاء " أنه في سنة 1220 هـ 1805 م هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك وكان السبب... أن باي وهران قتل بعض الطائفة الدرقاوية وأمر بالقبض على مقدمهم ... ففر الى الصحراء ونزل بحلة الأحرار، فاجتمع عليه أهل الطائفة وامتعضوا لمن قتل منهم وزحفوا مع قبائل العرب لحرب الترك فقتلوهم على حين غفلة ... ولكن أهل تلمسان هاجروا جميعا إلى المغرب فلم يبق من الرعية أحد ولم يعودوا إلا بعد سنوات،" فكانت سببا في رحلته إلى فاس بالمغرب الأقصى (الصلابي، 2001، صفحة 27).

ومن الطبيعي ان يتأثر ابن السنوسي مما وقع لأستاذه على يدهم، وزادت نغمته عليهم أكثر عندما كانت تصله أخبار الأجزاء الأخرى من الدولة العثمانية، في ظل بروز بوادر الأطماع الأوروبية لاحتلال بلاده، فهو يرى أن العثمانيين كانوا حريصين على حكم العالم العربي واضطهادهم مما سيؤدي إلى القضاء على مقوماتهم وإضعاف شخصياتهم (الدجاني، 1967، صفحة 42). تلك هي الفرصة التي اغتنمتها الدول الأوروبية الغربية لأخذ نصيبها من التركة المهملة لضعف صاحب الحق المعروف عندهم بالرجل المريض، ويستشهد بأدلة تؤكد النوايا الاستعمارية لاحتلال الأقطار العربية، ومنها استهداف بلاد المسلمين من طرف الاحتلال الأجنبي. وقد زاد من وعيه السياسي اطلاعه على أطماع القوى الأوروبية التي بدأت تترسخ في المنطقة، خاصة مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، والتغلغل البريطاني على الأقطار الإسلامية والعربية في الشرق بعد أن بسطت نفوذها السياسي والاقتصادي². كما شعر بأطماع الدول الأوروبية في بلاده (الصلابي، 2001، صفحة 28).

وهذه مصر التي تتجاذب فيها مختلف الأطراف من سلطان المماليك الاستبدادية إلى الحملة الفرنسية عليها، إلى السلطة العثمانية القائمة إلى استيلاء محمد علي³ وبسط سيادته عليها، فضعف العثمانيون وفيهم سلطة الخلافة الإسلامية، أدى بهم إلى التهاون وفشلهم في منع الاحتلال الفرنسي للجزائر، الأمر الذي جعله يشعر بضعف الدولة العثمانية وعجزها عن حماية ممتلكاتها، كما دفعته هذه الأحداث إلى الشعور بضرورة إعداد مشروع فكري إصلاحي به يواجه هذه الأخطار، ويحيي الوعي الديني والسياسي لدى المسلمين (الاشهب، 1956، صفحة 12).

ففي الوقت الذي بدأت أوروبا تقطف فيه ثمار الثورة الصناعية وما نتج عنها، تزايدت الأطماع الأوروبية على الإيالات العثمانية، وكانت بدايتها بالاحتلال الفرنسي لمصر عام (1212هـ/1798م)، فاشتد التنافس الاستعماري البريطاني الفرنسي على المناطق الاستراتيجية في العالم الإسلامي، وكثر الناقمون على الدولة العثمانية الذين فقدوا الثقة في قدراتها السياسية والعسكرية بعد هزائمها المتتالية، مما جعلهم يشعرون بعجزها عن حماية أملاكهم، وقد تزامن مع هذه الظروف التي تمر بها الدولة، ظهور عدد من المصلحين طالبوا بإصلاح الأوضاع الاجتماعية والسياسية ودعوة الناس إلى العودة إلى مبادئ الإسلام الصحيحة من أمثال محمد بن علي السنوسي (المريطب، 2018، صفحة 202).

لقد تعمق إحساس السيد ابن السنوسي بالخطر الأوربي وبالأخطار التي كانت تهدد الجزائر من الدول الصليبية، وهو ما سمعه من بعض الناس الذين كانوا يتحدثون عن احتلال الأسبان لمناطق كثيرة من بلاده على غرار المرسى الكبير، وهران، عنابة، مدينة تنس والجزائر ومستغانم مسقط رأسه، وما زالت جرائمهم الشنيعة وأعمالهم القبيحة تروىها الأجيال بعد الأجيال، من هدر للأرواح وتحويل المساجد إلى كنائس، تلك الأحداث جعلته يفكر جيدا في كيفية مواجهة الغزو الغربي المسيحي بشق الطرق والوسائل (الصلاحي، 2001، صفحة 26، 27).

3.1.1.. الدوافع الشخصية والعائلية:

أما على المستوى الشخصي فقد نشأ ابن السنوسي في بيت شريف أصيل عريق، ينتسب إلى السلالة الإدريسية الذين حكموا المغرب وتأثره بتاريخهم، ويظهر ذلك في كتابه الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية (السنوسي، مصر)، لتأكيد نسبه إلى الأدارسة من جهة وللبيت النبوي الشريف من جهة أخرى، فوالده وعدد من أجداده كانوا من علماء المنطقة التي ولد بها، وهو ما منحه منذ صغره شعورا بالمسؤولية التاريخية والدينية واقتناعه بضرورة الإصلاح وتغيير الأوضاع (الدجاني، 1967، صفحة 42، 43).

وكان لأسرته خصوصاً عمته التي قامت على تربيته، دور كبير في تنشئته علمياً وأخلاقياً، والمرأة قادرة على إيصال المعلومات للطفل بصورة شيقة ممتعة، فزرعت فيه حب العلم والتفوق والالتزام

بالسلوك القويم، ورسمت له خطوطا واضحة في شخصيته العلمية الإصلاحية، كما اهتمت الأسرة بتربيته تربية علمية بها الدراسة وفيها الفروسية (الدجاني، 1967، صفحة 43).

4.1.1.. الدوافع العلمية والتعليمية:

تعلق محمد بن علي السنوسي بطلب العلم منذ صغره كانت من أهم دوافع مغادرته للجزائر، فهناك شبه إجماع بين مؤرخي السنوسية على اعتبار أن أسباب رحلته كانت علمية ومرتبطة بمواصلة مساره الدراسي وشغفه لطلب العلم بجامع القرويين حيث نهل على علماء وشيوخ مستغانم ومازونة (الدجاني، 1967، صفحة 45).

فكان شديد الاهتمام بتحصيل العلم حتى أنه لم يكتف بما حصل عليه في بلاده، فارتحل إلى محروسة فاس محط رحال العلماء، والوقت ذاك وقت والعلماء علماء (شكري، 1948، صفحة 13)، وكانت فاس آنذاك تشتهر بجامع القرويين كأحد أكبر الحواضر العلمية وملتقى لطلاب العلم القادمين من شتى البلاد الإسلامية (المريطب، 2018، صفحة 203).

ومنه نرى تنوع وتعدد الدوافع التي جعلته يقرر الرحيل من الجزائر إلى فاس، حيث تحكمت في هذا القرار عوامل دينية سياسية شخصية وعلمية، داخلية وخارجية وجعلت من هذه المدينة بداية انطلاق مسيرته الفكرية والدعوية التي كان لها الأثر الكبير تأسيسه للطريقة السنوسية.

1.2.. سير الرحلة وتعلمه على يد شيوخ وعلماء فاس:

1.1.2.. انطلاق الرحلة وملامح التكوين العلمي الأولي بالجزائر:

تم الاستقرار على عام 1805م ليكون نهاية فترة محمد بن علي السنوسي الأولى بالجزائر، ومغادرته مستغانم متجها نحو فاس بالمغرب الأقصى، وأن هناك اختلاف في الرؤى عند عدد من المؤرخين، من أمثال محمد فؤاد شكري الذي يحدده ب 1237هـ 1822م ويوافقه الأشهب في ذلك، وهو ما يدل على تباين وجهات النظر حول التحديد الدقيق لانتقاله إلى فاس كل حسب معطياته (الدجاني، 1967، صفحة 44).

وفي سنة 1220هـ 1805م غادر ابن السنوسي مستغانم قاصدا فاس بالمغرب الأقصى، التي كانت حينها تمثل إحدى الحواضر الإسلامية الهامة في بلاد المغرب، اذ يوجد بها جامع القرويين الذي كان مقصدا لمحمد بن علي السنوسي بهدف التحصيل العلمي لتكملة ما تلقاه في بلاده بمستغانم (ميسوم، 2018، صفحة 136).

أما عبد المالك بن عبد القادر فيقول ان تنقل الإمام ابن السنوسي من مستغانم إلى فاس كان مع أواخر عام 1809م - وهي موطن أجداده الأدارسة الأشراف الذين قاموا ببناء هذه المدينة في عهد السيد ادريس الأنور الأصغر - حيث مكث بها سبع سنوات متتالية لتلقي العلوم في مسجد القرويين الذي يضاهي الجامع الأزهر بمصر (علي، 1966م،، صفحة 8)، وللاستزادة من العلوم والتحصيل والمطالعة رحل الشيخ ابن السنوسي من مستغانم إلى مدينة فاس، بعد ان تلقى مبادئ العلوم العقلية

والنقلية ببلاده، رحل على فاس في حدود سنة 1813م وهو في الثمانية عشر سنة من عمره (التونسي و
تق وتغ: المصراطي، 1965، صفحة 148).

بعد تلقيه العلم على شيوخه بمستغانم سنتين كاملتين، ومع أواخر عام 1806م خرج ابن
السنوسي من مستغانم إلى مازونة التي استقر بها لسنة واحدة، أخذ العلم عن شيوخها من أمثال
العلامة الجليل محمد بن علي أبي طالب المعروف بابن الشارف المازوني، والشيخ أبوراس الناصري،
رحل إلى تلمسان ينهل من شيوخها وعلمائها ما يقارب السنة الواحدة، وهي البلدة التي يتواجد بها مقام
ابن جده الرابع (بلحاج، 2019، الصفحات 417-418) وتنسب إليها الأسرة السنوسية تباعا ويتسمون
باسمه (علي، 1966م،، صفحة 8).

وعندما استفاد الشيخ بحظ وافر من الدروس على علماء بلده من الشريعة وآدابها، اشتاقت
نفسه للقاء المشيخة وللمزيد من العلم والمعرفة للتوسع في اكتساب الثقافة الإسلامية، فارتحل إلى
فاس بالمغرب الأقصى سنة (1237هـ/1821م) وهناك اتصل بجامع القرويين محط رحال العلماء
ومكث بها سبع سنوات (الجيلالي، 1982، صفحة 266).

وخلال إقامته بفاس لمدة سبع سنوات من 1822-1829م) تلقى العلم على كبار علمائها، وبدأت
تظهر على شخصيته الاتجاهات الإصلاحية، التي حددت معالم أفكاره الدعوية (المريطب، 2018،
صفحة 204)، وربما تكون هناك ظروف أخرى عجلت بارتحاله، كحالة عدم الاستقرار التي كانت تمر
بها منطقة وهران وما جاورها من تلمسان ومستغانم، التي ظهرت بها الفتنة بين العرب والترك، فهاجر
أهل تلمسان إلى المغرب ولم يبق منهم أحد، ولم يعودوا إلا بعد سنوات (دحدي، 2010/2009، صفحة
11).

هذه الأخبار تبين حالة عدم الاستقرار التي كانت تمر بها منطقة وهران وضواحيها بما فيها مستغانم بلد
ابن السنوسي التي لا تبعد عنها كثيرا، فهل تأثرت منطقته بهذه الأحداث وعجلت برحيله؟ يقول صدقي
الدجاني لا نؤكد ولا ننفي ذلك، ولكن هناك عامل آخر لابد من الإشارة إليه وهو نقمة الاتراك على
الدقاوية، والمؤرخون متفقون كما يقول صدقي الدجاني، على ان ابن السنوسي كان درقاويا ومختلفون
في تاريخ انضمامه إلى هذه الجماعة الصوفية، هل كان ذلك قبل سفره أم بعده؟ ثم يجيب عن
تساؤلاته بقوله: إذا كان درقاويا قبل السفر فرحلته كانت بسبب تلك الأحداث، وإذا كانت بعدها
فطلب العلم كان سببا رئيسيا في مغادرته نحوها (الدجاني، 1967، صفحة 46).

2.1.2.. إقامته بفاس وشيوخه في جامع القرويين:

من تلمسان رحل إلى مدينة فاس الشهيرة، وبها مقام أسرة الأدارسة التي ينسب إلى أحد اشرافها
السيد ادريس الأصغر بناء مدينة فاس، مكث بها سبع سنوات متتالية لطلب العلم، يدرس ويدرس

بجامع القرويين الذي يضاهي جامع الأزهر (علي، 1966م،، صفحة 8)، وكانت فاس حينها تمثل إحدى الحواضر الإسلامية وعاصمة للدولة الشريفة العلوية، وقبله لكثير من العلماء بهدف طلب العلم والاستزادة منه (ميسوم، 2018، صفحة 136).

استمر جامع القرويين كفضاء علمي لقرون طويلة من الزمن لم يحدث فيه توقف عن الدراسة، وكانت أهميته منذ بنائه كدار علم وفقه تحت إشراف العلماء والفقهاء، وبقي منارة العلم والعلماء، فاستحق ان يكون أول جامعة علمية عرفها العالم (الدجاني، 1967، صفحة 47). ونظرا لاختلاف المؤرخين في تحديد مغادرته مستغانم فإننا نرجح حسب وجهة نظر أحمد صديقي الدجاني عام 1805م كنهاية للمرحلة الأولى من حياة ابن السنوسي، لأنه ينسجم مع تسلسل أحداثه المستقبلية ولا يترك فراغا للمؤرخين في دراسة مسيرته، وما يدعمنا في هذا الترجيح ويزيدنا اطمئنانا هو رأي جده الملك ادريس الذي يؤكد مغادرته مستغانم سنة 1805م وهو في الثامنة عشر من عمره (الدجاني، 1967، صفحة 44، 43).

لقد جاء في كتاب الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية بليبيا لصاحبه عبد المالك بن عبد القادر رأي آخر يناقض تماما ما ورد في الأراء السابقة، اذ يقول انه مع أوائل عام 1817م خرج السيد الامام من القاهرة صحبة وفد الحجيج ومرافقتهم عائدا إلى فاس التي استقر بها حوالي نصف السنة لنفع العباد وإرشادهم، وفي أواخر أكتوبر 1818م توجه رأسا إلى مدينة الأغواط (علي، 1966م،، صفحة 10).

استمرت إقامته بفاس سبع سنوات من 1822-1829م ، حيث تلقى العلم على مشايخها، وهناك برزت الاتجاهات الإصلاحية في شخصيته وتحدد ملامح أفكار دعوته (المريطب، 2018، صفحة 203). كانت فاس تمثل إحدى الحواضر الإسلامية وعاصمة للدولة الشريفة العلوية، إذ يوجد بها جامعة القرويين التي تعتبر من أقدم الجامعات في العالم، فقد تأسست في القرن الرابع الهجري 345هـ- 859م في عهد الادارسة وقامت ببنائها سيدة مسلمة اسمها فاطمة بنت عبد الله الفهري، واستمرت مركزا للعلم والدراسة قرونا طويلة من الزمن، حيث انكب ابن السنوسي على المطالعة والقراءة وتحصيل مختلف العلوم (ميسوم، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر، رحلة محمد علي السنوسي إلى فاس أنموذجا ، 2019، صفحة 220).

وفي القرويين أيضا تعرف الشيخ ابن السنوسي على كبار علماء المغرب، وكانت له رغبة قوية في الاطلاع وأخذ العلم، وأغلب الظن أنه كان طيلة تواجده في فاس يتنقل بين الحلقات الواحدة تلو الأخرى للنهل من مختلف العلوم التي كانت تدرس وتمنح فيها الإجازات، فأخذ العلم بالرواية عن افاضل علمائها ومشايخها من أمثال الشيخ حمودة بن الحاج، حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج، سيدي الطيب الكيراني، الشيخ أبي بكر الادريسي والشيخ محمد بن عمر الزروالي والشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي، الذي كان من أشياخ الطريقة الدرقاوية (شكري، 1948، الصفحات 13-14).

ولما انتقل إلى مراكش وقع تحت تأثير الطرق الصوفية التي كان اتباعها قد توحدا في جمعيات دينية، وكانت هذه الجمعيات لا تتوافق مع الإسلام السلفي التي كانت تدعمه الدولة العثمانية في شمال إفريقيا، ولما كان نشاط الطرق الصوفية يشكل خطرا على أسس الدين الرسمي إضافة إلى التأثير العثماني على الجماهير المتدينة، فقد كان أنصار الصوفية يتعرضون للملاحقة، فلم يكن من ذلك سوى أنه رفع من هيبة الصوفية بين السكان الأميين في الشمال الإفريقي (بروشين و عماد، 2001، صفحة 320).

أما رحلته الثانية في طلب العلم فهي انتقاله إلى فاس التي مكث بها سبع سنوات تقريبا، لأخذ العلم عن أفاضل علمائها كالطبيب الكيراني، محمد بن عامر المعواني، أبي بكر الإدريسي والعربي بن أحمد الدرقاوي وهو من شيوخ الطريقة الشاذلية، كان لها دور في معرفته للطرق الصوفية وتفقهه في علوم الدين إضافة إلى تحصيل الاجازات، من علماء راسخين (الصلابي، 2001، صفحة 26).

وفي جامع القرويين أقر له الجميع بأنه فريد وقته وزينة عصره، وستفتخر به الأمة المحمدية وما يؤكد ذلك ترشيحه لمشيخة القرويين وهو لم يتجاوز الثلاثين سنة من عمره، ولكنه اعتذر عن هذا التكليف على الرغم من دراسته لمختلف العلوم العقلية والنقلية عن عموم مشايخ عصره بالديار المغربية وإجازتهم له ولاسيما من السادة الصوفية كالشيخ أحمد التيجاني (علي، 1966 م،، صفحة 8)، فاقبل الناس عليه لما رأوا فيه من عقل متنور، وفكر ناضج وفهم دقيق وشامل للدين الإسلامي، وهناك لاحظ تباعد الأمة عن دينها وعقيدتها وانحرافها عن كتاب ربها وسنة نبيها، ف شعر بخطورة الأوضاع الداخلية والخارجية التي تهدد المجتمع الفاسي (الصلابي، 2001، صفحة 25).

وهو متواجد بفاس ظهر عنده اهتماما بالغا بالحركات الإصلاحية ورغبة قوية للوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، ودعوتهم لتحقيق الإصلاح وتحسين الأوضاع الداخلية، فهو لم يدع إلى الثورة ضدهم، ولم يقف في صفهم، وإنما دعا إلى تصحيح وتقويم أعمالهم بالحسنى تارة وبالشدة تارة أخرى، وبالرغم من ذلك تنهت حكومة السلطان مولاي سليمان إلى دعوته وخشيت أن تنقلب إلى دعوة سياسية قد تعصف بالسلطة الحاكمة فشددت الرقابة عليه (بوسليم و ميسوم، 2011، صفحة 16)، على غرار ما كان يحدث سابقا في هذه الديار عند ظهور مثل هذه الدعوات التي تكون بدايتها بالإصلاح وتنتهي بالحكم والسلطان، فخشيت الحكومة من ذلك وقامت بتشديد الرقابة عليه (ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، ، العدد 20، جوان 2018، 2018، صفحة 137).

وما تجدر الإشارة إليه أن السيد السنوسي ما كان يدع فرصة تمر إلا وتبحر في معرفة الطرق والتفقه في علوم الدين، ولم يلبث طويلا حتى أجازه في العلوم التي درسها من كان أهلا لذلك، فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بالجامع الكبير في فاس (شكري، 1948، صفحة 14).

1.3.. قيامه بالتدريس في فاس وحصوله على المشيخة الكبرى:

بعد احتكاكه بمشايع وعلماء فاس الذين تلقى عليهم مختلف العلوم بجامع القرويين، وحصوله على المشيخة الكبرى، أصبح مدرسا بالجامع الكبير ومحبوبا من تلاميذه، شرع في بداية حياته العلمية العملية والدعوية، بممارسة التدريس والوعظ الارشاد والدعوة إلى الله، فأصبح محل ثقة من عامة الناس، وكان أسلوبه الذي يجمع بين الشدة واللين في الدعوة إلى الله من عوامل نجاحه لاكتساب الخبرة في مجال الدعوة والتدريس، فحظي بمكانة هامة وسمعة طيبة في المجتمع الفاسي (ميسوم، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر، رحلة محمد علي السنوسي إلى فاس أنموذجا، 2019، الصفحات 216-225).

وعند تعيينه مدرسا بالجامع الكبير في مدينة فاس بدأ حياته العملية كمدرس وداعية، حيث التقى بمجموعات الطلبة وعامة الناس، ويبدو أنه كسب ثقتهم وقبولهم له، ومن جهة أخرى فتحت له مهنة التدريس الاحتكاك للمرة الأولى بالسلطة القائمة (الدجاني، 1967، صفحة 52). وبعد أن أصبح ابن السنوسي مدرسا بالجامع الكبير أقبل عليه الناس لما رأوا فيه من التقوى والصلاح وفهمه الدقيق لعلوم الدين ونضج أفكاره، وفي هذه الأثناء أقبل عليه الطلبة ونال شهرة علمية عظيمة، فقد أكثر في دروسه من الموعظة الحسنة وأظهر حبه لنفع المسلمين ورغبته في رؤية العدل باسطا جناحيه بين أهل مراكش وعلى شعوب الإسلام كافة، بتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر، معتمدا طرق الإرشاد والتوجيه بالحسنى تارة وبالشدة تارة أخرى (شكري، 1948، صفحة 14).

ومن المميزات التي اتصف بها محمد بن علي السنوسي أنه كان شديد الحرص على اغتنام كل الظروف والمناسبات من أجل التبحر في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الأخرى، فلم يلبث طويلا حتى أجازته العلماء في العلوم التي درسها على أيديهم فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس (شكري، 1948، صفحة 14).

كما يلاحظ أنه خلال المدة التي قضاها ابن السنوسي وهو في مدينة فاس، تشكلت لديه أهم الاتجاهات الإصلاحية التي أثرت في شخصيته العلمية والفكرية، وتبلورت من خلالها أفكاره في التجديد والإصلاح، كما يمكن أن نميز ثلاث معالم رئيسية ساهمت في صياغة هذه الشخصية وبلورة أفكارها وهي (ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، العدد 20، جوان 2018، 2018، صفحة 136):

- أنها كانت موطنا للطرق الصوفية وميدانا خصبا لنشاطها، فتعرف عليها وأظهر اهتماما بالغاً بها، وهو الذي كان يعرفها من قبل بمسقط رأسه ويتردد عليها في صباه، وقد استمر في اهتمامه بالصوفية حتى آخر عمره، وبقي خطها بارزا في شخصيته وكانت من عوامل تأسيسه للطريقة السنوسية (دحدي، 2010/2009، صفحة 11).

- اهتمامه بالدراسات الفقهية، فقد استمر في دراساته الفقهية على المذهب المالكي أكثر المذاهب انتشاراً بالشمال الإفريقي، وكتب الفقه المختلفة كموطأ الإمام مالك وبقية المذاهب الأخرى، دلالة على سعة اطلاعه واهتمامه بالجانب الفقهي إلى آخر حياته، كل ذلك انعكس إيجاباً على حركته التي لم تكن متشددة ولم تكن متساهلة مع الطرق الصوفية الأخرى، فاكسبها صوفية سنية ولجئها بحدود الشرع.

- أما الخط الثالث فكان اهتمامه بالحركات الإصلاحية قصد إصلاح وتحسين المجتمع، بالوقوف مع الحكام لتحقيق مصالح المجتمع وتلبية احتياجاته، بتنظيم الفئات الاجتماعية وهيكلتها كتكتل شعبي للمطالبة بحقوقها، وفي المقابل الوقوف في وجه الحكام إذا ظهر عليهم الانحراف، ولقد برز هذا الاهتمام منذ كان في مستغانم بسبب ضعف الحكام واختلال الأوضاع السائدة، ثم تطور أكثر بوجوده في فاس التي تميزت عن مستغانم، بكونها عاصمة دولة ومركزاً للإشعاع العلمي ونشر الوعي.

2.. مغادرته فاس ورجوعه إلى الجزائر :

رغم المكانة العلمية لمدينة فاس التي ارتحل إليها محمد بن علي السنوسي لكونها مركزاً للعلم والصوفية، حيث ارتاد حلقات الذكر، وتعرفه على عدد من الطرق الصوفية مثل التيجانية والناصرية، إلا أن هناك جملة من الأسباب السياسية والاجتماعية والدينية أرغمته ودفعته إلى مغادرتها سنة (1245هـ/1829م) تمهيداً لتوجهه نحو بلاد المشرق.

1.2.. أسباب مغادرته فاس ورجوعه إلى الجزائر :

1.1.2.. القيود السياسية والرقابة الحكومية: تشديد حكومة السلطان مولاي سليمان الرقابة على ابن السنوسي، خوفاً من أن تتحول دعوته الدينية إلى حركة سياسية تهدد استقرار السلطة القائمة، وقد رأى ابن السنوسي أن في ذلك عائقاً يحول دون تأدية رسالته، مما دفعه إلى مغادرة فاس (الجيلالي، 1982، صفحة 267).

2.1.2.. الاضطرابات والفتن الداخلية: شهدت فاس خلال عشرينيات القرن التاسع عشر بداية من سنة (1235هـ/1819م) اضطرابات اجتماعية وفتناً سياسية بين العلماء والفقهاء، أبرزها النزاع بين القاضي أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي والمفتي الفقيه عبدالله محمد بن إبراهيم الدكالي، تم رفعه إلى السلطان للفصل فيه وبسبب تأجيله، غضب للمفتي عدد من المدرسين والطلبة من السلطان واتهامه بالظلم والجهل، مما أدى إلى توتر العلاقة بين العلماء والسلطان، وظهور حالة من التمرد والمبايعة البديلة، شارك فيها بعض شيوخ ابن السنوسي، ما خلق جواً غير ملائم لمواصلة إقامته في فاس (ميسوم، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر، رحلة محمد علي السنوسي إلى فاس أنموذجاً، 2019، صفحة 220).

اشتداد الفتنة أدى إلى خروج أهل فاس على طاعة السلطان سليمان، وقرروا مبايعة ابن عمه إبراهيم بن يزيد زوج ابنته (صهره)، وعند امتناعه ورفضه لهذه المبايعة، قاموا بتهديده قائلين " إن لم نبايعك بايعنا رجلا من آل ادريس رضي الله عنه فخشي خروج الأمر من بيتهم فأجاب" وكان من المشاركين في هذه المبايعة أحد شيوخ وأساتذة ابن السنوسي وهو الشيخ محمد العربي الدرقاوي، الذي كان على صلة مع الادريسي صهر السلطان، وهنا يتساءل أحمد صدقي الدجاني قائلا: هل كان ابن السنوسي وراء هذا التهديد عبر أستاذه الدرقاوي؟ ثم أجاب إذا كان الجواب ب نعم فكان ذلك خشية السلطان سليمان من تأثير ابن السنوسي على أهالي فاس (الدجاني، 1967، صفحة 57).

3.1.2.. الموقف المغربي الرسمي من تأثيره الصوفي: أثارت صلات ابن السنوسي وعلاقاته ببعض الشخصيات المؤثرة، مثل الشيخ محمد العربي الدرقاوي، شكوك السلطات حول دوره المحتمل في التأثير السياسي رغم عدم وجود أدلة قاطعة على تورطه، إلا أن الحذر الذي أبداه السلطان يؤكد حجم تأثيره المتوقع على أهالي فاس، ولكن مغادرته لها كان تجنباً للفتنة والاصطدام مع السلطان، وهذا ما أشار إليه أحمد صدقي الدجاني نقلاً عن بريتشارد في تعليقه قائلا: "لقد كان لهم سبب صغير للانزعاج، ما دامت جهوده بدت وكأنها حققت تأثيراً ضئيلاً على أهالي فاس، وهو ما يرجح أن دوره لم يكن كبيراً في ذلك التهديد" ومع ذلك فإذا كانت هذه القصة حقيقية، فإن شك السلطات في ابن السنوسي، لا بد أنه من التجارب الأولى المفيدة له، لمواجهة التحديات التي سيلاقها فيما بعد في القاهرة ومكة (الدجاني، 1967، صفحة 57).

4.1.2.. الرغبة في طلب العلم والرحلة للمشرق: إلى جانب الظروف السابقة الذكر، كانت لدى ابن السنوسي رغبة قوية في توسيع معارفه الدينية والتعرف على علماء المشرق، كما شجعه بعض شيوخه على مواصلة الرحلة العلمية نحو الحجاز، لاستكمال تكوينه العلمي وربط سنده بسند علماء المشرق وأحوال المسلمين هناك، حيث أمره بعض أسيادها بالرحلة للمشرق، ليجتمع بين السندين ويكمل النجاح بمحل مهبط الوحي وأنوار سيد الثقلين (المريطب، 2018، صفحة 204).

ومما سبق ذكره يتضح لنا أن رحلته إلى فاس وإقامته تشكل مرحلة مهمة في تكوين شخصيته الفكرية والدينية، فبعد أن قضى بها سبع سنوات تقريبا، كانت له تجربة فرصة ثمينة لمعرفة الطرق الصوفية والتفقه في علوم الدين، وبذلك تكون مغادرته فاس جاءت نتيجة تفاعل عدة عوامل جمعت بين الظروف السياسية والاجتماعية، وبين طموحه العلمي ورغبته في الإصلاح التربوي والدعوي، ومنها يمكن اعتبارها منعرج التحول في مسيرته الشخصية، حيث مهدت له الطريق لتأسيس الحركة السنوسية لاحقا باعتبارها نتيجة لرحلاته بين المغرب والمشرق، ولا شك أنها اضافت إليه الكثير من المعارف والخبرات التي صقلت دعوته الإصلاحية بشكل كبير (المريطب، 2018، صفحة 205).

2.2.. مسيرته من فاس إلى الجزائر بعد سنة 1245هـ / 1829م

1.2.2.. عودته من فاس ومحطاته الأولى في الجزائر: لاستكمال تكوينه العلمي ومواصلة مساره الدراسي، اشتاقت لأداء فريضة الحج فخرج من فاس راسا مع ركب الحجاج عام (1230هـ/1815م) ولم يتخلف عن الركب حتى وصوله إلى مكة وحج آخر هذا العام 1230هـ ديسمبر 1815م ومكث بها طيلة عام (1231هـ/1816م) (علي، 1966م،، صفحة 9)، ومع نهاية أول عام 1233هـ نوفمبر 1817م خرج من القاهرة مع وفد الحجاج عائدا إلى فاس مكث بها مدة لا تزيد عن النصف سنة وفي أكتوبر 1818م توجه إلى مدينة الأغواط التي استقر بها حوالي نصف سنة، لينتقل بعدها إلى مسقط رأسه بمستغانم عام 1818م لمدة سنة ونصف تقريبا ويعود من جديد إلى مدينة الجلفة منتصف (1235هـ/1820م) ثم إلى بوسعادة ومنها إلى حدود تونس (علي، 1966م،، صفحة 10).

ولعل مكة المكرمة كانت المركز المفضل لهؤلاء العلماء، فارتحل من فاس سنة (1235هـ/1819م) إلا أنه قبل ذلك اتجه نحو صحراء الجزائر وقد بدأت فرنسا تبسط سيطرتها عليها (دحدي، 2009/2010، صفحة 13).

والجدير بالذكر أن الامام ابن السنوسي ترك كل شيء في بلده الأصلي ورحل إلى تونس وطرابلس في سنة 1235هـ 1820م برا حتى وصل الحجاز بعدما ترك فتنا كثيرة في فاس (بوسليم و ميسوم، 2011، الصفحات 16-17)، ومع نهاية عام 1235هـ سبتمبر 1820م توجه إلى طرابلس فدخلها في شهر أكتوبر من هذا العام أبان حكم يوسف باشا القرملي، فأكرم نزله، ومكث بها مدة لالقاء دروس الوعظ والإرشاد ولم يترك مسجدا معروفا إلا ودخله (علي، 1966م،، صفحة 11).

مغادرته فاس سنة 1245هـ 1829م جاءت كنتيجة لتفاعل عدة عوامل جمعت بين الظروف السياسية والاجتماعية، إلى جانب رغبته لمواصلة مشروعه الدعوي، وقد ساهم الوضع السياسي الملبد بالفتن الذي يكون أحد أهم أسباب مغادرته لها، وخصوصا بعد أن تمكن السلطان مولاي سليمان من استعادتها، وكان مصير الشيخ الدرقاوي السجن ثم اطلق سراحه بعد وفاة السلطان عام 1237هـ، ومن المتوقع أن تكون هذه الاحداث قد اكسبته خبرات كثيرة، كما أن قيامه بالدعوة في فاس هيأته للقيام بدوره لاحقا، لذلك نراه في طريق عودته من فاس يدخل في صحراء الجزائر ليتعرف على أشهر الزوايا ويقابل مقدميها حتى بلغ عين مهدي، ومكث بها مدة قصيرة ثم انتقل إلى الأغواط التي كانت تتميز بموقعها في جنوب الصحراء كملتقى للقوافل الآتية من السودان الغربي، وفيها مكث بعض الوقت يلقي دروسا في الفقه والشريعة ليرتجل منها إلى مسعد ثم الجلفة وهو في اثناء طريقه يدرس ويقوم بالتدريس (الدجاني، 1967، الصفحات 56-57).

ولذلك نراه في طريق رجوعه من فاس يتجه نحو أعماق الصحراء الجزائرية حتى بلغ مدينة عين مهدي لمدة قصيرة من الزمن، ثم ينتقل إلى الأغواط التي تمتاز بموقعها الجغرافي الاستراتيجي كملتقى

للقوافل التجارية القادمة من السودان الغربي، يلقي دروسا في علوم الشريعة والفقه ثم يرتحل منها إلى مسعد بالجلفة (الصلابي، 2001، صفحة 31).

فعند عودته إلى الجزائر لم يعد إلى مسقط رأسه مستغانم، بل اختار المرور في صحراء الجزائر التي بها عدة مراكز صوفية مؤثرة، بهدف مواصلة نشر دعوته الدينية والتعرف على الطرق الصوفية المختلفة وزيارة زواياها واللقاء بمقدميها، وقد استقر في عين ماضي حيث درس الطريقة التيجانية، ثم انتقل إلى الأغواط وهي مدينة ذات أهمية تجارية واستراتيجية، تقع على طريق القوافل القادمة من السودان الغربي والذهابة إليه، وفيها فضل الإقامة حيث كان يُلقى دروسًا في الفقه والشريعة (شكري، 1948، صفحة 13).

وقبل ان يتجه إلى المشرق عاد إلى مسقط رأسه مستغانم حيث استقر لفترة وجيزة، وفيها قام بأول زواج له من إحدى بنات عمومته، ونظرا لخلاف بين أقاربها حول الأملاك كما يقول أحمد صدي الدجاني تم الاحتكام إلى القضاء، الذي كان في صالح عائلته، حيث قامت الحكومة بسجن أولاد عمه بسبب عجزهم عن دفع مخلفات الميراث (الريع) عن أملاكه طويلة مدة غيابه، فتنازل الإمام عن حقوقه وطلب اخلاء سبيلهم فكان له ذلك، وفي هذه الأثناء كانت فرنسا قد بدأت في فرض سيطرتها على الجزائر، وهي الأسباب الرئيسية التي جعلته يتجه نحو الصحراء (ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، العدد 20، جوان 2018، 2018، صفحة 137).

2.2.2.. إقامته في بوسعادة وصدمة الاحتلال الفرنسي:

استمرت تنقلاته الدعوية والعلمية حتى وصل مدينة بوسعادة، وبحسب ما أورده أحمد صدي الدجاني نقلاً عن نيقولا زيادة، فإن محمد بن علي السنوسي كان في بوسعادة سنة 1830م حين احتل الفرنسيون الجزائر، تأثر بشدة وراودته الرغبة في مقاومتهم، غير أنه عدل عن ذلك بعد رؤيا مشهورة دفعته إلى مواصلة رحلته نحو المشرق، وتشير المصادر إلى أن فكرة السفر إلى الشرق كانت موجودة لديه حتى قبل وقوع الاحتلال الفرنسي (الدجاني، 1967، صفحة 57).

بينما يرى بعض المؤرخين الآخرين من أمثال محمد الطيب بن ادريس الأشهب، أنه لما أسندت المشيخة إلى ابن السنوسي بجامع القرويين الذي كان يضاهي المعهد الأزهري بمصر، لم يرق له الاستمرار بفاس وكان قد درس عدد من الطرائق المشهورة كالناصرية، والمحمدية، ثم انتقل إلى الأغواط، التي تعتبر بوابة الصحراء وملتقى للقوافل القادمة من السودان الغربي والذهابة إليه، وهناك ألقى الدروس في الفقه والشريعة لمدة من الزمن (الأشهب، 1956، صفحة 16).

وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه محمد فؤاد شكري الذي يقول أن تشديد الحكومة المغربية القائمة آنذاك (السلطان مولاي سليمان) الرقابة عليه، جعلته يقتنع أن لا فائدة من بقائه في فاس، ولذلك قرر الارتحال، ولكنه لم يعد إلى مستغانم، وإنما كان يرى مواصلة نشر الدعوة الدينية والإرشاد بين الشعوب المجاورة، إضافة إلى الاستمرار في التعرف ودراسة جميع الطرائق المعروفة (الطرق

الصوفية) بزيارة الزوايا ومقابلة مقدميها، ولذلك فقد سافر سفرا طويلا، (شكري، 1948، صفحة 14) وصار يتنقل من مكان إلى آخر حتى وصل (عين مهدي) ثم ارتحل نحو الأغواط، التي تتميز بأهمية موقعها الجغرافي باعتبارها بوابة للصحراء من جهة، وملتقى الطرق التجارية القادمة من السودان الغربي والذهابة إليه من جهة ثانية وفي هذه الأثناء سقطت الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عام (1245هـ/1830م)، فأراد الرجوع إلى وطنه للمساهمة في مقاومة المحتلين، ولكنه تراجع عن ذلك بسبب رؤيا تنصحه أنه من الخير والواجب أن يواصل سيره نحو الشرق (شكري، 1948، صفحة 15)، وهو ما يؤكد تأثير العوامل السياسية والدينية في مغادرته فاس ورحلته المشرق.

كان لرحلته في الصحراء الجزائرية تأثير واضح وجلي في نضوج شخصيته، وقد وجد اختلافا كبيرا بين ما عاشه في مدن شمال الجزائر وفاس وبين ما لاحظته في مدن البوادي والصحراء، حيث كانت الزوايا التي يشرف عليها أصحاب الطرق الصوفية أهم مراكز الحركات الإصلاحية، وذلك ما فتح له أفاق جديدة للدعوة والإصلاح ويقوم بواجب الدعوة إلى الله، وإظهار الإسلام لكل أنواع البشر ولكل البقاع، وكان يرى أن شرفه منوط بأداء هذه الرسالة (الصلابي، 2001، الصفحات 31-32).

3.2.2.. تنقله إلى قسنطينة وتبلور الوعي السياسي والدعوي:

يشير محمد علي الصلابي، نقلاً عن صديقي الدجاني، إلى أن محمد بن علي السنوسي عاد إلى مستغانم قبل سفره إلى المشرق، حيث أتم أول زواج له من إحدى بنات عمومته، وقد نشب خلاف بينه وبين أقاربه حول أملاكه، فاحتكم إلى القضاء الذي حكم لصالحه، إلا أنه تنازل عن حقوقه وطلب العفو عن أقاربه، وهو ما تحقق بالفعل، بعد تسوية هذه الأمور، غادر نحو قسنطينة، ونزل عند قبيلة أولاد نايل في جنوبها، حيث أسس زاوية وجعل منها مركزا للتدريس والوعظ والإرشاد، ومكث فيها مدة من الزمن يمارس التعليم ويستقطب المريدين (الصلابي، 2001، صفحة 30).

ومهما تكن دوافع رجوعه إلى بلاده، سواء كانت علمية أو اجتماعية أو سياسية، فإن تعرض الجزائر في فترته إلى الاحتلال الفرنسي وانتشار الحركة الاستعمارية الأوروبية في المنطقة العربية، قد ساهمت في تشكيل وعيه بالمخاطر الكبرى التي مست العالم الإسلامي، لذلك تشكلت لديه فكرة ترمي إلى عمل جماعي لمقاومة المخطط الاستعماري، مهّدت لتحول جذري في مشروعه الفكري والدعوي لاحقا، فقد أصبح ينظر إلى هذه الأخطار باعتبارها جزءا من مخطط استعماري شامل يستهدف الأمة الإسلامية جمعاء، فبدأ يفكر في مشروع مقاومة جماعية تشترك فيها الأمة الإسلامية جمعاء تتجاوز الحدود الجغرافية الضيقة إلى العربية الإسلامية الواسعة (بروشين و عماد، 2001، صفحة 261).

والجدير بالذكر أن الامام ابن السنوسي ترك كل شيء في بلده الأصلي ورحل إلى تونس وطرابلس في سنة 1235 هـ 1820 م برا حتى وصل الحجاز بعدما ترك فتنا كثيرة في فاس، ومع نهاية 1820 م توجه

إلى مدينة طرابلس الغرب إبان حكم يوسف باشا حاكم طرابلس الذي أكرم نزله فمكث بالمدينة مدة من الزمن ولم يترك مسجدا معروفا إلا والقى فيه دروس الوعظ والإرشاد (علي، 1966م،، صفحة 11). وعندما كان السنوسي مقيما في بوسعادة حلت بالجزائر كارثة الحملة الفرنسية وكان قد تخطى الأربعين من عمره فهزه هذا الحادث هزا عنيفا ودفعه إلى الخروج من الجزائر في سبيل العمل من أجل تحرير كل الوطن الإسلامي.

ما يمكن ملاحظته واستنتاجه من خلال هذه الرحلة الممتدة من فاس إلى الجزائر، أنّ محمد بن علي السنوسي لم يكن مجرد رحالا متجولا بين الحواضر والزوايا، بل كان قائدا يعمل على تحقيق مشروع إصلاحى فكرى دعوى، وكان لتنقلاته واحتكاكه بمختلف الطرق الصوفية وتوثيقه للواقع الذي تزامن مع بداية الاحتلال الفرنسي لبلاده، الأثر في اكتسابه تجربة غنية ثرية ساهمت في بلورة أفكاره ومبادئه تدريجيا بعد انتقاله من الجزائر نحو بلاد المشرق.

2.3.. تأثير الرحلة على فكر ابن السنوسي:

3.1.2.. عوامل وملامح تكوين شخصية ابن السنوسي:

نشأة محمد بن علي السنوسي في بيت عريق وأصيل، يتصل بسلالة الأدارسة الذين حكموا المغرب، وهو ارتباط تاريخي كان له تأثيرا قويا بتاريخ أجداده ودافعا لديه لاستكمال مسيرتهم، هذا النسب الشريف شكل جزءا أساسيا من هويته وعمق ارتباطه بالتراث الإسلامي كما يبين ذلك في كتابه الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية (الصلابي، 2001، صفحة 27).

بيئته الأسرية في الجزائر وهي بيئة علمية مشجعة وكان أبناء البيت السنوسي كلهم منتسبين إلى العلم، حيث تلقى تعليمه الأولي على يد والده وعدد من أجداده العلماء والفقهاء، ما وقر له قاعدة معرفية متينة في العلوم الشرعية والفقهية، كما كان لعلمته وهي من فضليات أهل زمانها ومتبحرة في العلوم، لها دورا بارزا في تربيته، إذ أشرفت على تكوينه الروحي والعلمي منذ نعومة أظافره، واهتمت بتربيته وتثقيفه (الدجاني، 1967، صفحة 38).

لم تقتصر تربيته على التعليم النظري فقط، بل جمعت بين العلم، الدراسة، والتربية البدنية والفروسية، حيث كان والده يجمع العلم والصالح والتقوى، وبذلك فقد عايشته أسرته التقاليد التي كانت تولي اهتماما بالخصال القتالية والرمية بدرجة كبيرة إلى جانب الدراسة، ما ساهم في تكوين شخصيته المتوازنة بين العلم والعمل والرياضة (شكري، 1948، صفحة 11).

على الصعيد السياسي، فقد عرف العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر ميلادي عددا من الدعوات الإصلاحية التي انتشرت في شرقه إلى غربه، بسبب الجمود الذي أصاب المسلمين لفترة طويلة، وهو ما حفز دعاة الإصلاح إلى العمل على تحسين أوضاع المجتمع، ولا شك أن الحركة السنوسية التي عرفت فيما بعد باسمه – السنوسية-كانت من أفضل المحاولات في تشجيع النفوس وغرس الايمان في القلوب وكان في مقدمتهم محمد بن علي السنوسي (زيادة، 1991، صفحة 244).

إضافة إلى تأثيره بظروف الحكم العثماني في الجزائر ومما كان يراه من ظلم الولاة، ومن الثورات التي كانت تقوم بها القبائل ضدهم، وكانت لديه فكرة غير حسنة عن الأتراك تكونت في هذه المرحلة من حياته، وهو ما رسّخ لديه الوعي بالمقاومة والدفاع عن الهوية الإسلامية، كذلك كان لشعوره بالخطر الأوروبي المتزايد على بلاده أثر بالغ في تكوين نظريته حول ضرورة الإصلاح والتجديد (الصلابي، 2001، صفحة 27).

كل هذه العوامل وغيرها في الجزائر لم تكن منفصلة عن تجربته في المغرب، بل شكلت القاعدة الصلبة التي انطلق منها لتبلور فكره الدعوي والإصلاحي خلال رحلته العلمية في فاس، ويبدو أنه كان يتميز بقدر جيد من الذكاء فارتفعت منزلته في قومه، مما جعله مؤهلاً لتأسيس الحركة السنوسية ذات البعد الدعوي والإصلاحي.

2.2.3.. ملامح مشروعه الفكري بعد مقامه في فاس:

مدينة فاس تعتبر محطة هامة في مسيرة محمد بن علي السنوسي، إذ لم تكن مجرد منطقة للإقامة والاستقرار بها أو إقامة عابرة، بل كانت مركزاً وفضاءاً أساسياً تشكلت فيه ملامح مشروعه الفكري الإصلاحي والدعوي، فقد وجد فيها بيئة علمية خصبة، ونخبة من العلماء والمريدين الذين تشرف بالدراسة على أيديهم والأخذ عنهم، مما أتاح له الفرصة في الاحتكاك بأهم الاتجاهات الإصلاحية التي أثرت في تبلور وتشكل معالم مشروعه المستقبلي

في التجديد والإصلاح (ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، العدد 20، جوان 2018، 2018، صفحة 136)، بمجموعة من الخطوات العريضة التي اتضحت في شخصيته.

3.2.3.. تأثره بالطرق الصوفية وبوادر مشروعه الإصلاحي

لم تكن إقامة ابن السنوسي في فاس علمية فقط، بل كانت أيضاً تجربة روحية عميقة، إذ تعرّف هناك على أهم الطرق الصوفية المنتشرة في المغرب، وعلى رأسها الطريقة الدرقاوية التي تلقى على شيخها أحمد الدرقاوي التصوف وتبحر في معرفة أخبار الطرق الصوفية، ومنها الطريقة الدرقاوية وهي شاذلية في أصلها كان لها دور كبير في جهاد العدو ومقاومة الغزو الفرنسي بالمغرب (الجيلالي، 1982، صفحة 266).

وفي فاس تعمّق في دراسة هذه الطرق وتقاليدها، وسعى للتمييز بينها، وهي المدينة التي مكث بها ما يقارب الثمان سنوات، وكانت حينها تمثل مركزاً للطرق الصوفية وميداناً خصباً لنشاطها، وفيها اتضحت الاتجاهات الإصلاحية التي شكلت وبلورة أفكاره وآرائه في التجديد والإصلاح (ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، العدد 20، جوان 2018، 2018، صفحة 136). ولشدة تفكيره في العالم الإسلامي انكب باهتمام كبير على تحصيل العلم، حتى أنه لم يكتف بما تعلمه

في بلاده بل قصد محروسة فاس محطة رجال العلماء، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علمائها مثل سيدي العربي بن أحمد الدرقاوي وهو من شيوخ الطريقة الشاذلية، ويرى الكثير من المؤرخين أن ابن السنوسي كان درقاويا غير أنهم لم يذكروا متى انضم إليها هل قبل سفره إلى فاس أم بعدها، كما تبحر في معرفة الطرق الصوفية، وكان للطريقة الدرقاوية دور كبير في جهاد العدو ومقاومة الغزو الفرنسي بالمغرب (الجيلالي، 1982، صفحة 266).

كما درس وتلمذ على يد الشيخ الصوفي سيدي محمد بن أحمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية، واستمر اهتمامه بالصوفية التي كانت قوية ومسيطرة على أهالي فاس ولهم نفوذ قوي في جامع القرويين حتى آخر حياته، ومن الطرق التي تعرف عليها وهو بفاس نذكر منها القادرية، الناصرية والشاذلية وغيرها من الطرق الصوفية (ميسوم، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر، رحلة محمد علي السنوسي إلى فاس أنموذجا، 2019، صفحة 218).

يقول ابن السنوسي عن شيخه العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلاي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد، جمع الجوامع ومختصر الشيخ خليل، وذلك ما يدل على سعة اطلاعه ورغبته القوية في تلقي العلوم على شيوخ وعلماء كبار (الدجاني، 1967، صفحة 47).

ومن ذلك بدأ ابن السنوسي يكون نفسه تكويناً علمياً حتى يستطيع أن يصلح أوضاع المسلمين، حيث سافر إلى فاس والتحق بجامع القرويين، ومكث يدرس به سبع سنوات يأخذ الرواية عن علمائها ويتعلم أصول الفقه والشريعة وتفسير القرآن وغيرها من العلوم، كما درس بها الطرق الصوفية دراسة واقعية، فاختلط بكثير من أصحابها وتلمذ على يد الشيخ أحمد التيجاني صاحب لطريقة التيجانية. كان ابن السنوسي شديد الحرص على اغتنام كل الظروف والمناسبات من أجل التبحر في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الأخرى، فلم يلبث طويلاً حتى أجازه العلماء في العلوم التي درسها على أيديهم فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس (شكري، 1948، صفحة 14).

4.2.3.. تفاعله مع الواقع السياسي والاجتماعي :

في هذا السياق يرى نيكولاي إيلتشن أن ابن السنوسي، بعد انتقاله إلى مراكش، تأثر بالحركة الصوفية المناهضة للإسلام الرسمي الذي تمثله الإمبراطورية العثمانية، والذي كان في نظر أتباع التصوف لا يلبي حاجة الناس الروحية. وقد وجد السنوسي في هذه التجربة ما يعمق قناعته بضرورة الدفاع عن التصوف المعتدل، ورفع هيئته بين السكان، لا سيما البدو الذين كانوا أقرب إلى تعاليمه الصوفية من غيرها، هذه التجربة رسّخت توجهه نحو بناء مشروع ديني بديل يوازن بين النص الديني والواقع الاجتماعي (بروشين و عماد، 2001، صفحة 320).

5.2.3.. اكتساب الخبرة السياسية والوعي بالأخطار الخارجية:

لم تقتصر نتائج الرحلة على التكوين العلمي والدعوي، بل أكسبته أيضاً خبرة في التعامل مع السلطات القائمة وسعة إدراك للتحديات الداخلية والخارجية، فقد شهد عن كثب ضعف الدولة المغربية آنذاك أمام الاخطار الأوروبية، واطّلع على أحاديث الناس حول احتلال المدن الساحلية من قبل الإسبان مثل المرسى الكبير، وهران، عنابة، الجزائر، تنس ومستغانم وهي حوادث سمع بعض الناس يتحدثون عن النكبات التي لحقت بهم منذ قرنين من الزمن، وازالت أفعالهم القبيحة وأعمالهم الشنيعة يرونها جيلا عن جيل، واهدار كل حرمة وتحويل المساجد إلى كنائس، فشككت في ذهنه وعياً مبكراً بخطورة الاستعمار وأهمية بناء مقاومة دينية واجتماعية متماسكة (الصلابي، 2001، الصفحات 26-27).

خاتمة:

من خلال دراستنا لتفاصيل رحلة محمد بن علي السنوسي من الجزائر إلى المغرب، وبخاصة إلى مدينة فاس، اتضح لنا أنها كانت تجربة علمية ودينية ثرية كان لها تأثير كبير في بلورة شخصيته الفكرية والدعوية. فقد دفعته ظروف ذاتية كرهبته في التنقل لطلب العلم وموضوعية نتيجة الأوضاع السائدة في الجزائر مع نهاية الحكم العثماني لها، إلى الارتحال نحو هذه المدينة التي وجد فيها بيئة علمية مناسبة، مكنته من التعمق في دراسة مختلف العلوم والتصوف، وتشكيل رؤيته للمستقبل، كما وقّرت له فرصة الالتقاء بأبرز العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، مما أسهم في بلورة رؤيته الفكرية ومشروعه الإصلاحي.

فلم تكن آثار هذه الرحلة مقتصرة على الجانب الشخصي فقط، بل انعكست على منهجه في التربية والدعوة أكثر تنظيماً وفاعلية لاحقاً، وهو ما سيمتد أثره إلى مختلف محطات رحلته القادمة إلى المشرق وبالتحديد نحو الحجاز ووصولاً إلى الجغبوب مروراً ببرقة، كخطوات عملية لتأسيس الطريقة السنوسية. وبذلك يمكن اعتبار رحلته إلى فاس منعرج التحول ومحطة حاسمة في تشكيل مشروعه الإصلاحي المتكامل، وهذا ما سنحاول التطرق إليه في دراسة تفاصيل رحلته بين المغرب والمشرق

قائمة المصادر والمراجع

- فؤاد محمد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، 1948
- أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية. نشأتها نموها وتطورها في القرن 19 م، 1967
- محمد علي الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، ط 1، مكتبة التابعين، القاهرة، 2001.

- محمد بن علي السنوسي، الدرر السنية في اخبار السلالة الادريسية، محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبدالعالي الشنقيطي، مطبعة الشباب، مصر، سنة 1349هـ.
- محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، رحلة الحشائشي الى ليبيا جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تق وتج: مصطفى المصراتي، دار لبنان، ط 1، 1965.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.
- ميلود ميسوم، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، المرجع السابق، ص 136.
- ميلود ميسوم، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس أنموذجا، مجلة جسر المعرفة المجلد 05، العدد 04، 2019.
- نيكولاي ايلتش بروشين-تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين – تر وتق: عماد حاتم، ط 2، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2001.